

الإثنيون 18-02-2008

171- علمٌ و... ماذا؟ أم ه... ماذا؟

**مقدمة :**

من حق الناس وبالذات الزملاء العلماء أن يسألوا أو يتساءلوا عن موقع ما يرد في هذه اليومية: عن ما هو "علم" وما هو "ليس بعلم" باعتبار أن من يكتبها يحمل لقباً علمياً، وينتسب ولو جزئياً إلى منظومة علمية أكاديمية.

بعد 170 عدداً من هذه النشرة اليومية، التي تركت لها نفسى تحدد ما تراه مناسبا، أو لما يخرج منها ومن مخزون بالصدفة، بعد أو بدون التحديث، أنا شخصياً تساءلت فجأة عن تصنيف ما أفعل، خاصة والحوار قاصر - تقريبا - على من يعرف بعض ما عندي، تساءلت مثلما يتساءلون: ما هذا الذي اكتبه : "علم"؟ أم "خبرة"؟ أم "أدب"؟ أم "كشف"؟ أم "رؤية"؟ أم "ماذا"؟

يقول مولانا النفرى: إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة فأكتشف بدورى أنه إذا اتسعت الرؤية وأخ الالتزام تعددت الوسائل،

لم أترك وسيلة يمكن أن أحققها إلا وقفزت إلى تعرض خدماتها لأوصل ما وصلني من مرضى أساساً، وأنا معهم، والحق تعالى يجمعني فيهم إليه.

**اتهام :**

متهم أنا بالجهل، وهذا فخر لمن له منهج يجهل به، هذا المنهج هو أقرب إلى العلم (الذي ليس ضده الجهل كما يقول النفرى) منه إلى أى شئ آخر.

رحت أقلب في أوراقى فوجدتني خطت هنا وهناك محاولات أدافع بها عن جهلى هذا، أعني عن اتهامى بالجهل، ليس بغرض أن أنفى التهمة، ولكن ربما احتراماً لمن لم أستطع أن أبلغه طبيعة ما أحاوله.

وفيما يلى بعض ما وجدته من بدايات المحاولات خلال ثلاثين عاماً:

## استهلال:

كنا نأمل أن يحل لنا العلم مشكلة الوجود، بعد أن أفسد الشراح والمفسرون دور الدين في ذلك، لست أدري ما الذي أصاب العلم حتى ضحكوا عليه فأصبح "ديناً" يكاد ينغلق على أهله، يكفزون بنصوصه كل من خالفهم، ويعدون مرتداً كل من تجرأ وزحزح سقفهم .

ضبطت نفس متلبساً بوضع تعريف للعلم سنة 1978 يسمح لي بالهرطقة المناسبة ضد كنيسة العلم السلطوي والعلم باهظ التكلفة، كان ذلك في مقدمة لرسالة ماجستير أشرفت عليها طالت حتى أصبحت كتاباً هو "مقدمة في العلاج الجمعي"

## قدمت لذلك قائلًا:

التعريف الذي ارتضيته حين تصورت أن موقفنا لن ينصلح أبداً إلا بإعادة النظر في تعريف العلم بشجاعة تناسب خطي العصر العملاقة... قلت فيه :

العلم هو وسيلة معرفية لتوسيع المدارك والوعي، يغلب عليها استعمال التوجه الفرضي الاستنتاجي، وعادة ما تكون معيياته قابلة للاختيار ولكنها ليست بالضرورة قابلة للإعادة، وهذه الوسيلة تشمل جمع المعلومات بنسق ملتزم، والعملتان مرتبطتان ارتباطاً مباشراً بدرجة موضوعية وعي القائم بهما. وتتحقق المعلومات وتتصاعد الفروض في هذا السبيل بعدة وسائل تشمل إعادة التجريب، واختبارات التطبيق، وتقييم الإفادة في تحقيق مداها والوصول إلى غايتها، ودرجة تناسبها مع المعارف الموضوعية الأخرى، وكذلك مدى صلابتها أمام اختبار الزمن".

رحت أتأمل هذه التعبيرات:

- موضوعية وعي القائم بهما.
- وتتصاعد الفروض.
- إعادة التجريب.
- واختبار التطبيق.
- وتقييم الإفادة.
- والوصول إلى غايتها.
- ودرجة تناسبها مع المعارف الموضوعية الأخرى.
- اختبار الزمن.

قلت الحمد لله،

بعد عشرين عاماً سنة 1997 (دون أن أرجع للتعريف الأول. كنت قد نسيت أني وضعته) وجدتي أعيد تعريف العلم (مراجعات في لغات المعرفة) كما يلي:

"العلم هو نشاط معرفي يتبع منهجا له معالم واضحة، ليست ثابتة ثباتا مطلقا، وهذا النشاط ينتج عنه بشكل غالب منظومة من المعلومات متماسكة داخليا، وعامة نسبيا، على أن تكون هذه المنظومة:

- قابلة للمراجعة
- عتملة الخطأ
- قابلة للتصحيح
- قادرة على تفريخ توجهات وفروض جديدة
- قابلة بدورها للمراجعة، والتنفيذ
- وقادرة أيضا على تجديد منهجها أو اتباع مناهج جديدة
- وقادرة كذلك - بالممارسة - على شحذ المهارة وتعميق الوعي

هل يوجد وجه شبه، بعد عشرات سنوات؟

وهل تم جديد الآن بعد عشر سنوات أخرى 2008 ؟

لست متأكدا

فجعلت هذه النشرة اليوم لمراجعة بعض ما كان تمهيدا للانتقال إلى تقديم مناهل المعرفة للشخص العادي أساسا، ولن يهيم الأمر مهما بلغت أكاديمته!!!

قبل و وضع هذا التعريف، كان مدخلي إليه هو من خلال وضع تعريف بالثقافة العلمية، وليس للثقافة العلمية هكذا:

"... إذا كان التسخير العملي لمعطيات العلم في تسهيل وتنظيم السلوك اليومي المادى الظاهر هو ما يسمى التقنية (التكنولوجيا)، فإن تسخير معطيات العلم في تشكيل وعى الناس وتنظيم مستويات الوجود.....، يمكن أن يكون هو المعنى من هذا المفهوم الجديد المسمى "الثقافة العلمية".

.....

الثقافة العلمية هي تحقيق التطبيق العملى "الفعل العلم" - تفكيرا وإنجازا وناجما- في إعادة تنظيم الوجود البشرى لعامة الناس، حالا ومستقبلا، وخاصة في مجال تعميق الوعي وتحريك الإبداع.

فما هو "فعل العلم": تفكيرا وإنجازا وناجما ؟

ومن هم "عامة الناس" الذين سوف يسهم العلم في تنظيم وجودهم بتعميق الوعي، وتحريك الإبداع؟

ها كم بعض ما خطرلى من تنوعات تحتاج إلى تمييز وتوضيح مبدئيين

## تنبيه

إن ما لحق بكلمة العلم مؤخرًا، يكاد يخرج بما هو علم عن أصل مفهومه، بل إنه مسئول - ولو جزئياً - عن استعماله فيما هو ضده، فأنت حين تصف بحثًا ما بأنه "علمي" وآخر أنه "غير علمي"، أو حين تصف حديثًا بأنه "علمي" أو أنه "غير علمي"، أو حتى حين تصف ثقافة بأنها "علمية" وأخرى بأنها "غير علمية"، وكذلك الإعلام.. إلخ. إنما تفعل ذلك بتسليم تلقائي، وكأننا اتفقنا مرة واحدة، وإلى الأبد، على ما هو علمي وما هو غير ذلك، مع أن هذا لم يحدث، وربما لن يحدث أبداً بهذه الصورة الوثائقية المحدودة، بل الأهم: أنه لا يصح أن يكون هكذا أصلاً.

## تشويه

ثمّ تشويه لحق بمفهوم العلم ومكانته نتيجة عوامل كثيرة من أهمها:

- 1- غلبة أو اقتصار استعمال كلمة علم على العلوم الطبيعية (وأحياناً العلوم البحتة، أو العلوم المنضبطة أو المحددة).
- 2- ارتباط كلمة علم (أكثر فأكثر) بكم وطريقة تقديم المعلومات والنتائج (في شكل أرقام وإحصاءات بوجه خاص)، أكثر من دوره البناء في تعميق الوجود واتساع الوعي.
- 3- قصر كلمة علم على ما ثبت بالتجربة مع الإقلال النسبي من دور الملاحظة بطبقاتها: سواء كانت الملاحظة المقننة أو الملاحظة المباشرة المفصلة، أو الملاحظة المتضمنة للباحث داخل الظاهرة (المنهج الفينومينولوجي).
- 4- التأكيد (لدرجة استبعاد ما دون ذلك) على ضرورة الإثبات بالإعادة (المكررة) قبل السماح بتصنيف الناتج بالملاحظة تحت لافتة ما هو علم.
- 5- المغالاة في أهمية ارتباط كلمة "علم" بكلمة "معمل".
- 6- ارتباط كلمة علم بكم الوثائق والمستندات المدعمة (وخاصة فيما يتعلق بالعلوم الحكائية أو العلوم التاريخية).
- 7- ارتباط كلمة علم في كثير من الأحيان باللمس والخمس دون المستنتج والمستخرج.
- 8- الخلط بين العلم كماهية، ونشاط متميز، وبين الحصول على "شهادة" أو درجة أو وظيفة لها صفة لاحقة تسمى علمية.
- 9- تخصيص مؤسسات بذاتها لتتصف بصفة "العلم" وكأنها نافية - ضمناً - لما هو خارجها باعتباره ليس علماً (أو ليس بالضرورة علماً)، مع أن ما بداخل هذه المؤسسات "العلمية" في الدول النامية كثيراً ما يكون هو الذي: ليس بالضرورة علماً. (مثل بعض مراكز البحوث، وأحياناً الجامعات).

## فعلُ العلم:

ما الذى جعلنى أربط "الفعل" "بالعلم" هكذا كما ورد  
حالا مما يحتاج إلى توضيح

فعل العلم - فى رأي - هو نشاط إنسانى كلى يتميز أساسا  
بغلبة نوع من التفكير يتصف بالتسلسل المنظم من الملاحظة إلى  
الفرض إلى التحقيق إلى المراجعة إلى التنفيذ إلى فرص التوسيع  
إلى إعادة صياغة الفرض (الفروض) وهكذا، باستمرار، هو  
أقرب إلى ما يسمى "التفكير العلمى"، وقد قصدت استعمال  
كلمة "فعل" هنا قصدا، حتى أنفى أنها عملية نظرية معلنة  
فقط.

حين يصبح العلم نفسه "فعلا" قائما بذاته، وليس فقط  
وسيلة إلى فعل يستعمل نأجه، يصبح إسهاما فى إبداع جديد  
لوعى يتخلق.

## علاقتنا بكلمة "العلم" وموقعنا منها:

لكل منا موقع وموقف من كلمة العلم حين يستعملها أو  
يسمع عنها أو ينتمى إليها، وفيما يلى بعض ذلك:

1- **مُنْتَجُ العلم:** هو الشخص الذى يمارس فعل العلم بمنهج  
(أو مناهج) محددة، وبدرجة ما من التخصص، بحيث يكون  
نتاج هذه الممارسة إضافة منظمة، لعدد من المعلوات  
والمعارف تتصف بدرجة من العمومية والتماسك وقد تعد  
بفائدة تطبيقية.

2- **مستهلك العلم:** هو المتلقى الذى يستعمل معطيات  
العلم وإنجازاته فى تسهيل حياته اليومية، وكذلك فى  
تطوير ذاته ومجتمعه، يحدث هذا إما بإرادته الشخصية  
المعلنة، أو من خلال أنه يندرج فى مجتمع منظم يسمح وينظم  
هذا النوع من الاستهلاك والاستيعاب، بطريقة تلقائية  
راتية.

3- **حامل العلم:** وأعنى به المحافظ على المعلومات الناتجة  
من فعل العلم وإنتاجيته، وهو ليس بالضرورة شخصا، إذ  
يمكن أن يكون كتابا أو منسوخا أو شريطا أو قرصا أو  
مكتبة أو وثيقة، أو موقعا إلكترونيا أو راويا أو  
مؤرخا شفاهيا.

4- **ناقل العلم (موصل العلم):** وهو الذى يقوم بتوصيل  
معطيات وإنجازات العلم من المنتج إلى المستهلك (بالمعنى  
الإيجابية السابقة أو حتى بالمعنى السلبية اللاحقة)، ويشمل  
ذلك الناقل الإنسانى (المعلم)، والناقل الأحدث بكل أنواع  
إنجازات التكنولوجيا المتاحة لوسائل التوصيل المعاصرة.

[ملحوظة: ما سبق من تنويعات لاي معنى بأية حال من الأحوال  
تعريفات، وإنما هى تحديد غلبة دور بذاته، إذ أن أيا مما  
سبق يمكن أن يتصف بأكثر من صفة أخرى فى نفس الوقت]

الأوجه السلبية التى تتعلق بكلمة "العلم" (= ضد العلم)

**1- خطأ استعمال العلم (Misuse):** هو استعمال معطيات ومنجزات العلم، استعمالا قاصرا أو ضيقا أو محدودا أو مغلوطا عفوًا أو قصدا، مثل استعمال العلم لتفسير الدين.

**2- سوء استعمال العلم (Abuse):** وهو استعمال معطيات العلم، بسوء قصد ظاهر أو خفي - فيما يضر- أو غير ذلك مما هو "ضد العلم". مثل صناعة السلاح للتدمير والإفناء، ومثل استعمال العلم في تشكيل الوعي بما يفسده تعصبا، أو عنصرية، أو تمييز، أو قهرا.

**3- اختزال العلم:** ويدخل هذا في خطأ الاستعمال وسوء الاستعمال، وهو يعنى اقتطاع جزئية علمية، من سياقها، ثم تأويلها الناحية الأخرى، أو مثل أخذ جزئية من المنجزات العلمية وتعميمها وتسخيرها لغير غرضها في غير موقعها .

**4- تلوين العلم:** وخاصة بخلط منهج من مناهج المعرفة بمنهج آخر بقصد التسوية الزائفة، أو التلفيق المتعسف، لتحقيق أغراض لا تمت إلى طبيعة العلم بصله، ومن ذلك بعض التداخل التعسفي بين منظومات المعرفة، بقصد التعميم أو لى الذراع أو التعصب أو الإعلان أو الترويج، وأكثر هذه النماذج شيوعا هى مسألة **التفسير العلمى لبعض نصوص الدين**، وبدرجة أقل الترويج لعلمنة الفن مثل **علمنة النقد الأدبي**، وإلى درجة أقل أيضا تلك **التداخلات الوثائقية لبعض العلوم النفسية في تفسيرات فعل سياسى** مثلا... الخ.

**5- عبادة العلم:** وهذا ما يمكن أن يسمى "دين العلم" حين يصبح العلم بمثابة قيد أيديولوجى على مصادر المعرفة من روافد أخرى أو حتى مناهج أخرى من خارج مؤسسة العلم السلطوية (مثل الممارسة - الإيمان - الفن)، ويتطلب هذا النوع من العبادة تجميد المعبود وتصنيف المنهج- مثل أغلب الطقوس المقدسة - بحيث يحول ذلك دون مرونته ومراجعتة وتفنيده وامتداده، وإبداله، ويصبح العلم إلهًا ينزل الوحي، وليس كيانا دائم التغيير من خلال الممارسة المتجددة.

**6- تخزين العلم وحبسه:** وينطبق تعبير خازن العلم على العالم المنغلق على ذاته دون امتداد في تلاميذه، كما ينطبق على حيز العلم عن مستهلكيه بانفصال العلم عن المجتمع.

**7- احتكار العلم:** وهذا احتمال وارد حين يصبح العلم ملكا خاصة لفئة بذاتها دون سائر الناس، وليس حقا عاما للناس كافة، واحتكار العلم قد يأخذ صورا صريحة مثل الاحتفاظ بأسرار علمية مثل سر تفجير الذرة، ولكنه قد يأخذ أشكالا أخطر وأخفى، حين يأخذ شكل تصدير ظاهر العلم دون حقيقته، أو ممارسة التباهى بقشور ناتج العلم دون امتلاك ناصية منهجه، يقوم بذلك عادة

المستهلك الأدنى، فينقسم الناس إلى منتج ومبدع في ناحية

فوقية، ومستهلك تابع في الناحية الدونية، رغم أن الجميع يتصورون أنهم يعيشون تحت مظلة ما يسمى حياة عصرية علمية.

8- تزييف العلم: العلم الزائف Pseudoscience : هو النشاط الذى يأخذ شكل العلم، وظاهر منهجه، دون أن يلتزم بموضوعية معناه وغائته وحركيته وإضافاته ومرونته

وقد انتشر هذا النشاط مؤخراً حين تمادت الشركات العملاقة العابرة (الدواء والسلاح والبترو..الخ) في استعمال العلماء الذين يسمون مؤخرًا "بروليتاريا العصر الحديث"، حيث يستعمل العلماء لتحقيق أغراض لم يحاطوا بحقيقة أبعادها: مثل تخليق غرائز استهلاكية جديدة لصالح تكديس السلطة والأموال في أيدي من لا ينفع البشر ولا طورهم.

لفظ "العلم" من المعاجم وما يمكن أن يتضمنه

أحترم المعاجم احتراماً شديداً، لكنني أتجول فيها مختاراً، وأبدأ منها، ولا أتوقف عندها، وأحاول أن استلمهم من محاولتهم لتقديم تعريف جامع مانع ما يسمح لي بمتابعة تشكيلات الكلمة تاريخياً وحاضراً.

أولاً: من المعاجم الإنجليزية

1- العلم هو حالة أو حقيقة "أن نعرف" ويشمل هذا التعريف أن العلم هنا هو ما يقابل فعل المعرفة، أو حالة كوننا عارفين، وهذا يتضمن المعاشة والاستيعاب، قبل وبعد تنظير المعلومات وتنظيمها.

2- العلم هو المعلومات التي نتحصل عليها من خلال الاستيعاب أو التعرف أو التمكن من أى مجال من مجالات التعلّم. ويشمل هذا التعريف درجة من تعميم وسائل التعرف بالإضافة إلى التمكن، لكن يكاد يحدد هذا التعريف أن يكون هذا النشاط في إطار التعلم، وما لم يتسع معنى التعليم والتعلم ليشمل تغيير التركيب فإن التعريف يصبح قاصراً، ورغم أن هذا التعريف لا يؤكد على التخطيط الهادف في هذه العملية، إلا أن السياق يوحى بذلك، ليس من جهة الفرد فقط وإنما بصفة عامة.

3- العلم هو منظومة شاملة من الأحكام والرؤى العامة، وذلك من خلال إثباتات منهجية.

هذا مدخل يوسع مفهوم العلم بدرجة كافية لكنه لا يحدد منهجاً بذاته، وهو لا يقصر بعض المعارف دون غيرها على ما هو علم، وتضمن الرؤى هنا فيما هو علم، وكذلك عدم تحديد نوع خاص من المناهج، لابد وأن يوسع دائرة ما هو علم بشكل أو بآخر.

4- العلم هو نوع من المعارف أو النشاط الذهني الذي تتبدى فيه العلوم .



إن المراجعة الشجاعة والمتأنية لهذه المسألة لابد أن تكتشف أن ما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية من استعمال هذه الكلمة "علم" ليس له علاقة باستعمالها في عصرنا هذا، وبالتالي يجدر بنا أن نحترم تراثنا بشكل أفضل.

كلمة العلم قد وردت في النصوص الدينية والشرعية بضمون أبعد ما يكون عن المفهوم "الجامع المانع" الذي يحدد معناها المعاصر، وأيضا أبعد عادة عن المعنى المراد إبلاغه للعامّة من خلال المنظومة العلمية الأحدث.

#### كيف وردت كلمة العلم في لغة التصوف

حضور كلمة علم في اللغة العربية في مجال التصوف كان مختلفا، ولا يحسب أحد أن لغة التصوف هي لغة خاصة نادرة، ذلك أن العامة (في مصر خاصة) - كثيرا ما تتلقى وتستعمل الكلمات وهي تحمل مضمون لغة الصوفية، أكثر مما تحمل مضمون اللغة التقليدية .

وفي حين لا تظهر كلمة "العلم" هكذا في معجم ابن عربي - مثلا- نجد أن النفرى قد أحاط بها من جوانب كثيرة، في مواقف متعددة، وفيما يلي بعض مواقف النفرى التي استعمل فيها كلمة "العلم"

#### من مواقف النفرى

سوف أكتفى بالبداية بالإشارة إلى مقتطفين من النفرى: **الأول:** يجعل العلم دابة من الدواب في الطريق إلى المعرفة، **والثاني:** ينبه إلى الفرق بين "جريان العلم" و"عين العلم" وألسنة العلوم"، وأعتقد أن هذا التمييز يتعلق بموقف الإعلام من ناحية ("جريان العلم")، والتحذير من الإكتفاء بتسميع العلم والرتانة بلغته من ناحية أخرى (ألسنة العلم)، ثم التنبيه إلى ضرورة الغوص إلى فعل العلم وجوهر المعرفة من ناحية ثالثة (عين العلم).

(أ) إذا عرفت معرفة المعارف جعلت العلم دابة من دوابك.

(أنظر كيف حدد العلم كوسيلة بين وسائل أخرى إلى معرفة أمثل، ربما تكون هي عمق الثقافة في لغتنا المعاصرة)

(ب) من اغترف العلم من جريان العلم، لا من عين العلم، نقلته ألسنة العلوم وميلته تراجم العبارات،

فلم يظهر بعلم مستقر، ومن لم يظهر بعلم مستقر لم يظهر بحكم .

(لاحظ: أن الاستقرار غير السكون والثبات)

هذا، وقد حاولت فيما حاولت أن أقرأ - استلهاما موازيا - بعض مواقف النفرى (بومئة 2008-1-28 "النفرى والشعور بالذنب") بما قد يقربنا من كشف معين في هذه المسألة

وفيما يلي بعد ذلك دون تعديل: "مواقف النفرى بين التفسير والاستلهام"

أولاً:

وقال لى :

من لم يقف: رَأَى المعلومَ ولم ير العلم،  
فاحتجَب باليقظة كما يحتجِبُ بالغفلة  
موقف الوقفة (ص12)

القراءة الاستلهام:

خلطوا بين العلم والمعلوم،

العلم جوهرٌ، والمعلوم ظاهرٌ محتمل.

قالوا إن العالم هو من علم المعلومة أو علمها.

وتعلمنا أن العالم هو حضورٌ ممتلئ بذاته.

العالم يتعلم المعلومات، يفرز المعلومات، ولا تحده المعلومات.

ندعى اليقظة فيحتد الانتباه فيختفى باقينا وراء ألعية الغباء.

ندعى الغفلة حتى نطلب الرحمة، فنتخبط في العمى ونظم أنفسنا.

علم العلماء توقف عند علم العلماء.

الواقف خاشعا يستعمل علمهم من الظاهر،

لا يصلح به في ذاته، إلا أن يكون طريقا إليك.

لا هو يرفضه ولا هو يعبده.

في رحابك يضع علمه حيث تضعه منه.

العلماء أدواتك إليك، لا همُ بديلا عنك، ولا هم إثباتا لك.

هم يصلحون بعلمهم إذا ركبوه ولم يركبهم،

إذا ذكروه ولم ينسهم أنفسهم.

هم نسوك فنسيئهم رحمة بهم،

وحين يذكرونك سيضعون علمهم ومعلوماتهم حيث تقرّبهم منك،

وليس حيث يثبتونك بها.

غرمهم بعلمهم الغرور، مع أن العلماء أولى بك من غيرهم.

امتحاهم أصعب، ويقىنى أن عدلك لن يتخلى عنهم.

بفضلك لم أتركهم، ولم أتبعهم، ولم أعلنهم أين أقف بين يديك إليك،

لا أخاف، ولا أنسحب، ولا أرفض.

اليقظة زادت إلى ما بعدها من غيبك المدهش الخافز للكشف،

والغفلة سحاكٌ لأجمع نفسى حتى أحتمل مواصلة السعى إليك.

لا تحجبني عنك لو غرّنتى يقظتى عن خيبتى الرائعة،

ولا تطمس وعيى لو طالت غفلتى.

ثانياً:

وقال لى:

الوقفه روح المعرفة

والمعرفة روح العلم

والعلم روح الحياة.

وقال لى:

كل واقف عارف،

وما كل عارف واقف

موقف الوقفة (ص12)

لكل كيان روح، ليست نقيض جسده، ولا هى منسلخة عنه.

هى جُماغه فى امتداده إلى ما بعده .

خاف العلماء على علمهم من المعرفة، فأصبح علما بلا روح.

سلبت روحه فما جدواه؟

وخاف العارفون على معارفهم من الوقفة فأصبحت معرفة

بلا روح، سلبت روحها، فماذا تبقى منها؟

وخاف الواقف على وقفته فى رحابك يريد وجهك،

خاف من دُخلاء الادعاء،

فاحتفظ بروح وقفته وهو يبحث عن أجدية لها فى المعارف  
والمعلومات .

راح يحاول أن يحتوى العلم والمعرفة دون أن يتخلى عن وقفته.

ماذا أقول لهم مولاي العدل الصمد؟

إن الوقفة غير التوقف. فما أدراهم بالوقفه فى رحابك؟

عذرتهم دهرا .

بُعدهم عنك لم يسمح لهم أن يميزوا بين الوقفة والتوقف.

خاف العلماء أكثر فأكثر على علمهم من أدياء

المعرفة، فتجنبوا المعارف إلا ما عرفوا بأدواتهم المقدسة حتى  
التصلب.

تجنبوا حتى معارف العارفين.

وخاف العارفون على معارفهم من أدياء الوقفة،

فاستغنوا عن الوقفة .

وخاف الواقفون من سفاهة السفهاء فى كل المواقع، فلاذوا

بالصمت،

طمعا فى رحمتك بنا، وبهم .

لا أعرف حلاً فى المدى القريب.

الواقف الذى لا يرى سواك: يرى المعرفة والمعارف، كما

يرى العلم المعلومات، تأتيه من خلال وقفته ليراك. (وهل يمكن  
أن تكون إلا كذلك؟)

حين ينتظم العلم والمعلوم، والمعرفة والمعروف لتكون هي هي منك إليك،

يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار .

تهدي سبحانك لنورك من تشاء، شرط أن يطلب الهداية .

إذا اكتفى العلماء والعارفون بعلمهم ومعارفهم، عموا وصموا، فأنكروا وصلوا. حتى لو جاء ذكرك على لسانهم أيام العطلات، وقبل النوم،

وأثناء أداء العمرة تلو العمرة .

ثالثا:

وقال لي:

اطّلع في العلم فإن لم تر المعرفة فاحذره،

واطّلع في المعرفة فإن لم تر العلم فاحذرها

موقف المطلع (ص32)

العلم حق، والمعرفة حق، والوقفة حق .

وأحق الحق هو ترتيب الحق في موضعه منك، ومن الحق الآخر، فالحق الآخر، وهكذا: ليصب الجميع في الحق الأكبر.

حذرتُ نفسي-بفضلك من ترك العلم بحجة عمى العلماء،

مع أن كثيرا من أدواتهم هي من بنات عمومة اللات والغزي.

حاولتُ ألا أفصل المعرفة عن العلم أو العلم عن المعرفة،

ولو اختلفت الأدوات، فلم أنجح إلا قليلا.

عدت أبحث عن المقياس، فلم أجد ما يعينني جاهزا .

قلت: تتوازي السبل لتكمل بعضها بعضا،

وإذا بالخطوط المتوازية لا تلتقى أبدا .

رحت أنظر في محاولات غيري فوجدتهم يتجهون المنظومات إلى بعضها البعض، فلحقت الكوارث بالأصل والترجمة على الجانبين ذاهبا وإيابا .

خاب تفسير العلم للمعارف، وتشوهت المعارف برطان أمجدية

العلم، وتفرقنا خدوعين بالخلط، أو متبارين بالزيف على

الجانبين. فبعد الجميع عنك إلا من خيالات نسجوها بدلا منك،

كما بعدوا عن العلم إلا من مُعلقات مُحنطات.

آلات الجشع تبرق وكأنها نور بديل، فلا تضيئ إلا ما لا حاجة لنا إليه .

بعدوا عن المعرفة إلا من شطح كاليقين.

استعلوا على الغيب خوفا من الخرافة، فطمسوا الطريق للكدح كدحا .

هم لم يقتربوا أصلا من الوقفة بين يديك،

ولو فعلوا لتبينوا أنك في كل ذلك غير ذلك.

أمرك، سبحانك.

تأمرني أن أطلع في العلم، بحثا عن المعرفة، فهل يسمح أهل العلم؟

وأن أطلع على المعرفة بحثا عن العلم، فهل يسمح أهل المعرفة؟

ولماذا أنتظر سماحهم وأنا في موقف الأمر؟

أنت تحذرنى ثقة بي، فأنا أهل لذلك، هذا هو.

رحمتك ورؤيتك تفتح لي آفاق كل شيء، فلا أرفض.

مسئول أنا أن أوضد، لا أن أترجم .

أن أقول، لا أن أعيد.

أن أفعل، لا أن أثبت.

أن أستكشف، لا أن أحكم.

أبحث عنك فأجدك في كل صغيرة وكبيرة.

آه لو يحظر على بالهم أن كله منك، وإليك، وأنت تتجلى في كل شئ :

في كل علم، في كل معرفة، في كل حرف، في كل قولية، في كل إثبات، في كل ضد، في كل أصل، في كل فرع :

إذن لأراحوا أنفسهم وكفوا عن تشويهك بالأدلة، وبالتأويل، و بالتبرير، وبالتزوير، وبالتسريح، وبالاستغفال، وبالصور، وبالتصوير، وبالاختزال، وبالتسويق، وبالرشوة.

إذا استمر الأمر هكذا فلسنا أهلا للتوجه إليك،

إلا أن تغفر لنا، وتتوب علينا.

#### وبعد

لا مجال لتفصيل ماذا يمكن أن تستلهم مناهج العلم الحديث من كل هذا العمق عند النفرى خاصة، وهو يجدد - مثلا - أنواع المعرفة، والعلم، والمواقف وغيرها، لكن إهمال هذا الثراء أو إنكاره، والاكتفاء بالجاهز المصمت من مناهج مختزلة، إنما يؤدي إلى خنق لفظ العلم داخل قوالب تحول دون حركته وتطوره، وهذا هو من أهم ما يجرمنا من استلهم تراثنا بغير وجه حق.

#### وبعد

ليست المسألة مبارزة خائبة بين منهج ومنهج، ولا هي مبارزة فخر وهجاء بين أسلوب وأسلوب، وإنما هي دعوى إلى الاستماع لكل الأصوات بالسماح اللازم، والخذر الواجب، فالإنسان بتاريخه الخيوى الرائع، أحوج ما يكون إلى كل مستوياته تنشط وتتضرر وتتجادل، لينطلق إلى ما يعُد به من كل صوب وحذب نحو ما يمكن أن يكونه، "ليصير" أبدأ.

- قمت بالترجمة شخصيا